أولا: الظروف العامة التي عاصرها ابن خلدون

تطرّق عبد الرّحمان ابن خلدون في رحلته العلمية إلى العديد من المواضيع، بدأها بالفلسفة والمنطق، ثمّ انتقل إلى التاريخ، ثمّ إلى علم الاجتماع، ثمّ الاقتصاد... وفي كلّ مجال من هذه المجالات ترك آثارا علمية خلّدت اسمه، وساهمت في إضافة معرفة علمية للبشرية. وتعتبر اليوم مساهماته الفكرية والعلمية من أهم المساهمات وأكثرها عراقة وتميزا في مجال الفكر الاجتماعي والتاريخي منذ القرن الرابع عشر الميلادي، لذلك اهتمّ الباحثون بجمع أخباره وسرد أحداثه، وتحليل فلسفته وإسهاماته الفكرية والعلمية.

ولم تكن الظّاهرة الخلدونية مجرّد تراكم معرفي لمختلف العصور السابقة، بقدر ما كان فكره يعبّر عن عبقرية شخصيته التي تمكّنت من الالمام والإحاطة بجانب كبير من التراث الاسلامي، بأسلوب اتخذ منحى استنتاجيا تأليفيا أضاء الجهل والجمود الفكري الذي ساد عصره. حيث عاش في فترة زمنية تميّزت بالتراجع العسكري، وبتهميش العقل، وتدجين العلماء، ونهاية الكيانات الكبرى (دولة الخلافة الاسلامية)، وبداية التجزئة والتفكيك في مختلف أنحاء المجال الاسلامي، وظهرت العشرات من الامارات المستقلّة والمتصارعة التي تكالب عليها غيرها (الاتراك والسلاجقة والماغول والتتار شرقا، والامتداد المسيحي على حساب الاندلس وصقلية غربا). هذه الأوضاع كان لها الوقع السّيء على المستوى النّفسي والفكري، حيث سادت عقلية الاحباط والتخلي عن ما هو معقول، للبحث عن حلول ما ورائية، واعتبار السّلف نموذجا للخروج من الأزمة؛ أي بروز نوع من الماضوية التي تصدّق كلّ ما فات ولا تثق في الحاضر والمستقبل.

تحدّث ابن خلدون عن تدهور وتدني المستوى العلمي آنذاك، الذي كان سجين مراقبة الفقهاء النّخبة خدمة للسّلطان، وقد قسّم العلوم إلى صنفين: نقلية ونوعية.

- **الصّنف النقلي:** ما يأخذه الانسان عمن وضعه، أي هي العلوم المستندة إلى الخبر أو الرّواية، كاللّغة والنّحو وعلم الكلام...
- **الصنف العقلي:** يهتدي إليه الانسان بفكره ويسميه ايضا صنفا طبيعيا أو علوما فلسفية حكيمة، كالرياضيات، المنطق...

هذا يعني انّه عاش في عصر شهد صراعا بين المنقول والمعقول؛ أي بين علم الرواية وعلم الدّراية، مع غياب الاختصاص. كما يتضح أنّ تأثير الظروف الاجتماعية تبقى محدودة في عملية الإبداع، حيث لا يكون لها التأثير نفسه عند الأغلبية الساحقة من أفراد المجتمع.

ثانيا: التعريف بالعالم "عبد الرحمان ابن خلدون"

هو عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون ولي الدين الحضرمي الاشبيلي، ولد في تونس سنة **1332** م؛ شبّ وترعرع فيها، وتخرّج من جامعة الزيتونة. ولي الكتابة، والوساطة (السفير) بين ملوك المغرب والاندلس، ثمّ انتقل إلى مصر، حيث تقلّد منصب القاضي. وقد قسّم العلماء تاريخ المراحل التي عاشها هذا العالم إلى اربع مراحل:

- **المرحلة الأولى:** امتدت منذ ولاته الى اول عشرين عاما من عمره؛ قضاها في مدينة تونس، متعلّما، وأكمل حفظ القرآن في عمر **15** عاما، كما تعلم خلالها القراءات وأحكام التجويد.
- **المرحلة الثانية:** امتدت هذه المرحلة **25** عاما، واتسمت بتقلده مناصب عديدة سياسية وديوانية عدة في المغرب، وتونس، والجزائر.
- **المرحلة الثالثة:** كتب فيها كتابه المشهور "العبر في المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والامازيغ ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، والذي يحتوي في قسمه الاول المقدمة، وتقسم هذه المرحلة الى قسمين الاولى قضاها في قلعة ابن سلامة، والثانية في مدينة القاهرة.
- **المرحلة الرابعة:** امتدت هذه المرحلة اربعة وعشرين عاما، وهي المرحلة التي اشتغل خلالها في وظائف التدريس والقضاء، وقد قضاها في مصر.

من خلال ما سبق يتبيّن أنّ ابن خلدون بدا بحفظ القران الكريم، ثم درس علوم الحديث والشّريعة وقواعد اللغة العربية والشعر، كما اهتم بدراسة الفلسفة التي كانت منتشرة في العصر الاندلسي، وتاثر بثقافة الاغريق عامة وبكتابات ارسطو بشكل خاص، وكان لمعلمه الآبلي الاثر الواضح في منهجه الذي يتمثل في الابتعاد عن الدراسة النظرية، وإتباع الاسلوب العلمي. واتسم ابن خلدون بالعديد من الصفات التي جعلت منه رائداً في الفلسفة، فكان له سعة كبيرة في الاطلاع ومراقبةِ أحوال البشر بقدراته الخارقة، وتميز بدقة النقد والملاحظة وقدرةٍ كبيرة على التفكير. فقد ذكر في مقدمة كتابه أنّ الفلسفةَ هي من أهمّ العلوم التي ستتطور مع تطور العمران، وحرص على تجديد طريقةِ عرضهِ للنقد دائماً وعرض المقدمة.

ثالثا: أهم مؤلّفات ابن خلدون

❖ **كتاب العبر في ديوان المبتدأ والخبر:** هو كتاب كامل اسمه "العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والامازيغ ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر" ويحتوي الكتاب في جزئه الاول على مقدمة ابن خلدون المشهورة.

❖ **كتاب المقدمة:** يعدّ اهم مؤلفات ابن خلدون، وترجمت الى العديد من اللغات الاجنبية، فنالت شهرة كبيرة عُرف على اثرها ابن خلدون عند الغرب قبل الشرق الفت سنة **1377** م، كمدخل لكتابه المعنون "كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر". وقد اعتبر المفكرون والباحثون هذه المقدمة مؤلفا منفصلا ذو طابع موسوعي يتناول جميع ميادين المعرفة من الشريعة والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والعمران والاجتماع والسياسة الطب. وقد تناول فيه احوال البشر واختلافات طبائعهم والبيئة وأثرها في الانسان. كما تناول بالدراسة تطور الامم والشعوب ونشوء الدولة، وأسباب انهيارها، بعد أن بنى تحليلاته وتفسيراته لها على ما اسماه بمفهوم العصبية. وهناك من يعتبر ان ابن خلدون هو من اسّس علم الاجتماع، وليس الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت.

❖ **شفاء السائل لتهذيب المسائل:** شرح ابن خلدون في هذا الكتاب منهج الصوفية وأهم نظرياتهم، وذكر الرجال المشهورين منهم، واهم مؤلفاتهم.

❖ **الباب المحصّل:** كتبه في سن لم يتجاوز العشرين عاما، ويعدّ أوّل كتاب يؤلّفه في حياته حيث شرح فيه احد كتب علم الكلام.

❖ بالإضافة إلى ما جاء في كتب المؤرخين لمؤلّفات اخرى مثل شروحه لبعض مؤلفات ابن رشد، وشرحه لنهج البردة، وكتاب في الحساب والمنطق...

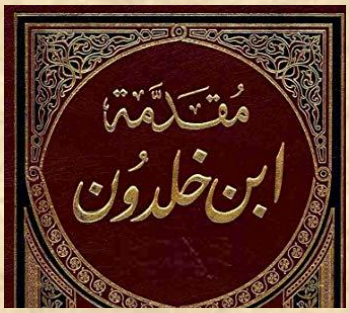

رابعا: كتابة التاريخ عند ابن خلدون

انتقد ابن خلدون المؤرخين القدماء، وفساد منهجهم وطريقة تفكيرهم، واعتمادهم على النّقل دون النّظر العقلي، ومعرفة أصول وقواعد السّياسة وشؤون المجتمع، وتزلّفهم للأمراء والفقهاء وأهل السّلطان، وثقتهم العمياء بالرّواة النّاقلين للأخبار. لذلك دعا في كتابه الموسوم بـ "**المقدمة**" إلى اعتماد رؤية شاملة تتناول الماضي بمختلف أبعاده السّياسية والاجتماعية والاقتصادية والثّقافية... ووضع الحقائق التّاريخية تحت المجهر العلمي، واعتماد منهج المقارنة والنّقد للتّأكد من صحّة وأمانة الرّواة واتفاقها مع طبيعة الأشياء.

وينطلق ابن خلدون من أن التاريخ هو فن من الفنون يبحث في وقائع الزمان؛ مُميّزا بين ما هو: "**ظاهر** لا يزيد عن الأيّام والدّول والسّوابق من القرون الأولى، و**باطن**: نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق."[1] وقد يعود هذا الوعي الحاد إلى انخراطه الكلي (السياسي، والثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي) في حياة عصره. إذ تؤكّد كلّ دراساته أنّه كان شاهدا مميزا على زمانه، ما مكّنه من الكشف عن حقيقة وقائعه حين رتّبها ترتيبا يستند إلى مفاهيم عقلية واضحة. ولم يكن اهتمامه بالتّاريخ من أجل **توثيق مسائل دينية** كما فعل المؤرخون العرب المسلمون حين ربطوه بالعلوم النّقلية، ولا من أجل ربطه **بالأخلاق** كما فعل بعض الفلاسفة على غرار مسكويه والفارابي، بل من أجل استنطاق حوادث الماضي والاستعانة بها لفهم الحاضر. وقد اتبع المنهج العلمي التاريخي الذي ترتكز على تأمّل وتمحيص فحص الظواهر الاجتماعية المترابطة فيما بينها، فلكلّ ظاهرة سبب، وفي نفس الوقت تكون سبباً للظاهرةِ التي تليها، لذلك جاء مفهوم العمران البشري على أنّه يشمل جميع الظواهر العمرانية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية.

رغم هذه الأفكار إلاّ أن هناك من الباحثين الذين يرون أنّ ابن خلدون بقي مقيدا بالقوالب النظرية الأرسطية، أي أنّه أراد إنشاء تاريخ جديد بمفاهيم قديمة كالصورة والمادة والعوائد والمزاج والطبع والطبائع بينما التاريخ الاجتماعي علم تجريبي يقوم على الفتوحات المعرفية والمنهجية التي تحققت في القرن **20** بالاعتماد على المناهج الحديثة كالمنهج الكمي والمنهج البنيوي والأنثروبولوجيا الثقافية. ومهما قيل عنه فيكفيه فخرا ما أصبح يمثله من عظمة في الشرق والغرب، بدليل أنّ من الباحثين يستدلون بأفكاره سعيا للحصول على الشرعية لمذهبها في ظل أفكاره.

---

[1] من كتاب المقدمة

خامسا: ابن خلدون وعلم العمران

كما رأى أنّ المجتمع كائن تاريخي يتطور حسب قوانين خاصة يمكن ملاحظتها وتحديدها، وهي قوانين تُستخلص من تاريخ موضوعي يعتمد الحتمية؛ قادر على تحليل الظواهر المجتمعية. ويبيّن ابن خلدون في مقدمته أنّ علم العمران البشري، علما مستقلا، يختلف عن سائر العلوم والفنون، التي عرفت في عصره ، والتي قد تبدو متداخلة معه أو مختلطة بميدانه، فهو يختص بموضوع الاجتماع الإنساني، وله لذلك مجالاته، مفاهيمه، مناهجه وأطره التفسيرية.

أكد أنّ علم **العمران البشري** علم يتعلق بقابلية الإنسان على أن يحيا حياة مجتمعية، واستعمل لفظ **العمران** كمصطلح **مفتاح** لتفسير ظواهر عدة، مثل: السياسة، والاقتصاد، والعلم، والتربية، والأخلاق، والعمارة، ما منح هذا المصطلح القوة الدلالية والمعرفية اللازمة، كما ارتبط استخدامه بمجموعة من القضايا المتمايزة في مادتها ودلالاتها وعلاقاتها ببعضها البعض، حيث تقسّم حسب طبيعتها إلى **إيجابية**، وأخرى **سلبية**.

- **القضايا الإيجابية** فهي التي تعبر عن الطبائع والأحوال مثل: الاستخلاف، والتمدّن، والعزّة، والكثرة والتآنس، والصنائع والعلوم، والكسب والمصلحة، والمحافظة والحضارة...
- **القضايا السّلبية** مثل: التناقص، والتقلّب، والقلّة، والذّلة، والتوحّش، والعصابات، والتراجع، والسكون، والخراب، والفساد، والتبدّل، والتصرّف، والحول، والتفاوت، والتّرف، والاختلال، والانتقال...

صنَّف ابن خلدون مفهوم العمران إلى ثلاثة أنماط من التجمعات البشرية تشمل: **التجمع الطبيعي**، **والبدوي**، **والحضري**، وأقام روابط شبه ضرورية في تحديد الأسبقية الزمنية في التحوّل والانتقال من نمط إلى آخر، كما هو واضح في تفسيره لنشأة الملك وتأسيس الدولة بوصفها كياناً سياسياً. من جهة أخرى يمهد ابن خلدون عرضه لعلم العمران البشري، من خلال حقيقتين اجتماعيتين، يراهما ضروريتين للتجمّع البشري، وتتمثل في: حقيقة **التعاون** كون الإنسان ضعيف، ولا يمكنه العيش منعزلا، لذلك يبقى في حاجة دائمة إلى الآخرين من بني جنسه. أما الحقيقة الاجتماعية الثانية فهي **العدوان** الذي يعتبره فطريا بين سائر الحيوانات، لذلك خلق لكل منها، عضوا أهلا لتدافع به عن نفسها.

غير أن هذا الاجتماع البشري هو في حاجة إلى **وازع** يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباع البشر من عدوان وظلم، لأنّ الأسلحة ليست بالكافية، في دفع العدوان عنهم، لأنه فطري فيهم، لذلك فإن هذا الوازع، ال يكون في غيرهم من الحيوانات، لقصور مداركهم وقدرتهم عن رده، وبذلك يكون هذا الوازع من البشر

أنفسهم، حيث يكون لأحدهم الغلبة والسّلطان على غيره من أفراد قبيلته أو جماعته، حتى لا يقع العدوان بينهم. ويضيف ابن خلدون إن بين كل الكائنات الحية، ثمة من يترأسهم، كما عند النّحل والجراد، ومن ثمّ، فإنّه لابدّ للبشر من الحكم الوازع أو القيادة السّياسية.

غير أنّ الحياة الاجتماعية، لا تستقرّ بالسّياسة فحسب، بل يضيف إلى هذا العامل، عاملين آخرين، هما البيئة **الجغرافية** و**الاقتصاد** أو ما عبر عنه بالصنائع. وتمثل هذه العوامل معا، مرتكزات نظرية العمران البشري. وقد ربط بين طباع البشر ومزاجهم، ونوع البيئة التي يعيشون فيها. وأما ارتباط الامصار (المجتمعات) ببعض الصنائع، فهذا مرتبط بدرجة التطور الحضاري، الذي تبلغه هذه الأمصار، وبقدر تحضر العمران استدعى الترف، وبرزت صنائع لذلك النوع. وهو ويفصل بين **الفلاحة** و**الصناعة** و**التجارة** هي وجوه طبيعية للمعاش. فا**لفلاحة** هي أقدم أصناف المعاش التي عرفها الانسان، أما **الصّناعة** فهي أكثر تقدّما من الفلاحة، وتمثّل **التجارة** طبيعة في الكسب تقوم على البيع والشراء بين البشر، وإن كان يشوبها التحايل.

سادسا: نظريات علم العمران

عرض ابن خلدون في كتاب المقدمة نظرياته في العمران البشري، والتي شملت:

❖ **التطوّر الاجتماعي:** أشار ابن خلدون إلى فكرة التطور قبل داروين ببضعة قرون، حيث ماثل بين حياة الكائن العضوي، وحياة المجتمع البشري، وجعل للدول دورة للحياة، تأخذ شكل مراحل انتقالية تطورية حتمية، عبر التاريخ، تبدأ من مرحلة النشأة ثم النمو والازدهار فالأفول والزوال. كما تتطوّر الدولة حسب خمسة مراحل هي:

1. **المرحلة الأولى:** مرحلة الصراع الاجتماعي لانتزاع الملك، والاستيلاء عليه، من الدّولة السّابقة، فيكون صاحب الدّولة، قدوة قومه في اكتساب المجد والقوّة، التي دعمتها العصبية أو الشعور بالتماسك والوعي بالمجتمعية، التي وقعت بها الغلبة.

2. **المرحلة الثانية:** مرحلة استبداد صاحب الدولة على قومه، والانفراد دونهم في الملك، كما يقوم باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع، من دون أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في النسب.

3. **المرحلة الثالثة:** مرحلة تحصيل ثمرات الملك، حيث ينزع صاحب الدولة إلى تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، ويهرع إلى توسعة الجباية وضبط الدّخل والخرج، إحصاء النفقات وتشييد المباني والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة، والهياكل المرتفعة.

4. **المرحلة الرابعة:** مرحلة القنوع والمسالمة، حيث يكون صاحب الدولة قانعا مقلّدا لما بناه السابقون، ويرى في مخالفتهم والخروج عن تقليدهم فساد أمره.

5. **الطور الخامس:** مرحلة الإسراف والتبذير، وإتلاف ما جمعه الاوّلون في سبيل الشهوات والملذات ومجالس، فتضعف بذلك عصبية القوم، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها الضعف والمرض المزمن الذي يستعصي عالجه والشفاء منه، وبذلك تنقرض وتزول.

❖ **أثر المناخ والبيئة الجغرافية على الحياة الاجتماعية:** خصص ابن خلدون المقدمة الثانية من كتابه في التاريخ، حول قسط العمران من الأرض، وما تحتوي عليه البيئة الطبيعية أو الأقاليم، من أشجار وأنهار..، وأثرها على أمزجة وطباع ومعاش الجماعات الاجتماعية. كما فرّق بين سبعة أقاليم مختلفة، معتمدا على تقسيم الجغرافيين القدامى للأرض، وقسّم كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ولاحظ أن المناخ يلعب دورا في ألوان البشر وأخلاقهم وطباعهم، وأنه مرتبط كذلك بحالة العمران البشري.

❖ **أنماط الحياة البدوية والحضرية:** فرق بين نمطين من الحياة الاجتماعية: البداوة والحضر، على أن البدو أو أهل البادية يمثلون الشكل البدائي للعمران، السابق على الحضر، وهم يختلفون عنهم، من حيث طبيعة اقتصادهم وثقافاتهم. ويقر أن البدو أقدم من الحضر، وأن البادية أصل العمران. كما يرتب البدو أنفسهم، بحسب طبيعة معاشهم إلى مراتب ثالثة:

1. **المرتبة الأولى:** معاشهم من الزراعة والفلاحة، وهم سكان القرى والجبال، وهم عامة البربر والأعاجم.

2. **المرتبة الثانية:** معاشهم من الماشية الغنم والبقر، مثل البربر والترك والصقالبة.

3. **المرتبة الثالثة:** معاشهم من الابل مثل العرب.

❖ **الاجتماع السياسي:** ساهم ابن خلدون إسهاما أصيلا، في ميدان الاجتماع السياسي، حيث تناول الاجتماع البشري في العلاقة بين المجتمع والدولة، وهو الموضوع الرئيسي الذي يعالجه تخصص علم الاجتماع السياسي، والذي خاض فيه العديد من علماء الاجتماع المعاصرين، إلاّ أنّ ابن خلدون قد تميز

عنهم جميعا، لأنّه جعل نشأة الدولة وتطورها، عبر مختلف عهودها، مرهونا بقوة **العصبية**، وهي نزعة طبيعية في البشر.

تقترن **العصبية** كمفهوم أساسي في الفكر الخلدوني، بالقبائل البدوية، التي لا تزال تعيش مرحلة الفطرة في حياتها، ولم تتحضر بعد، ولذلك فإن جل العلاقات الاجتماعية المنتجة داخلها، تحكمها صلات الرحم والقرابة والنسب. هذه الأخيرة التي قد تكون عاما كالالتحام العائلي. وتكون الرئاسة لأقوى العصبيات في القبيلة، حتى يقر لها بالإذعان والإتباع من العصبيات الأخرى. ويشترط فيمن يتولى الرئاسة انتماؤه إلى عشيرة أو عائلة عرفت بالشّرف والحسب الذي يقصد به أن يعد الرجل آبائه المتعاقبين.

ويخبرنا ابن خلدون أن صاحب العصبية إذا بلغ رتبة معينة، طمع في التي أرفع منها، وحال بلوغه رتبة السؤدد والإتباع، ووجد السبيل إلى التغلب والقهر، فإنه لا يتركه، لأنّ السيطرة فطرة إنسانية، كما أنّ الدّولة القوية قوّية بعصبيتها، التي ترغم بقية العصبيات الضّعيفة بالانضواء تحت ولايتها.

❖ **الاجتماع الاقتصادي:** تناول ابن خلدون في نظريته الاقتصادية في العمران البشري، التداخل بين مختلف النشاطات الاقتصادية ومقومات البيئة الطبيعية، ومتطلبات البيئة الاجتماعية، وقد تدرج في تبيان ذلك، منطلقا من شرح مفهومين أساسيين في الحياة الاقتصادية للعمران، هما **الرزق** و**الكسب**. ويقصد **بالرزق** تلك المنفعة أو الفائدة، التي يجنيها الإنسان عن طريق سعيه أو اجتهاده، إما من كسبه أو عمله. وأما **الكسب** فهو السعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل.